شمال السودان الغربي وخلفيات التسرب الأوروبي

د . أحمد الحمدي*

تمهيد :

إن المنطقة التي سأتحدث عنها هي ذلك الجزء المعمور بين السودان الغربي ، والصحراء الكبرى ، وبلاد شنقيط ، وبلاد الهوسا . وهي الوحدة الجغرافية ، والتاريخية ، التي عرفت مؤثرات تاريخية واحدة ، غير أنها لا تشكل وحدة بشرية ، حيث تسكنها العديد من القبائل ، والأجناس ، لكل منها لغته ، ولسانه .

المجال والجغرافيا :

يجعل بعض الرحالة شمال السودان ، ضمن الصحاري الواقعة بين نوميديا ، وأرض السودان ، حيث قال : « . . . وتوجد في هذه المناطق أمكن تحمل أسماء خاصة حسنة أو قبيحة بحسب حال البلاد . . . وهير[1] التي هي ، وإن كانت أيضا صحراء ، فإن هواءها طيب معتدل »[2]. وبلاد[3] السودان مجالها واسع عند الرحالة والجغرافيين . ومن القلائل الذين زاروها ليون الأفريقي[4] وكثيرا ما يصطدم الباحث عند قراءته للمراجع التاريخية ، والجغرافية ، بأسماء معالم ، أو قبائل ، أو مناطق جغرافية ، لا يتمكن من تحديد موقعها بدقة . حيث تشير تلك المراجع إلى مناطق يختلف امتدادها باختلاف الحقب التاريخية ، بحيث لا يتيح ذلك التعرف على المنطقة المعنية ، وعلى حدودها ببعض التفاصيل ، وينطبق هذا بشكل خاص على المنطقة مجال البحث ، والتي تتغير عبر مراحل التاريخ ، نظرا للتنقلات التي عرفتها القبائل إما لأسباب محلية ، أو لدوافع تتعلق بالممالك

* كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية ، جامعة وهران .

(1) أهير : مدينة بالنيجر تقع إلى الغرب من أقدس ، وتضم عنصرين من السكان هم : الطوارق ، والسودان.وهي تنقسم إلى عدد من القرى ومساكنهم بعضها بالطوب والبعض الآخر عبارة عن أكواخ ، وقد بلغت المدينة أوج ازدهارها عام 926 هـ ، 1519 م ، عندما استولى عليها أسكيا الحاج محمد.ينظر : الهادي المبروك الدالي ، التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما الصحراء ، مطابع الوحدة العربية الزاوية ليبيا ، ط الأولى 2000 ، ص 134.

(2) الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي بيروت والشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط ، ط الثانية 1983 ، ج 1 ، ص ص 32ـ33.

(3) الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي بيروت والشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط ، ط الثانية 1983 ، ج 1 ، ص ص 32ـ33.

(4) الوزان ، المصدر السابق ، ج1 ، ص 76.

المجاورة وسياستها حيال تلك القبائل . فقد كان هذا المجال يتمدد عن طريق زحف بطيء أو بصفة مفاجئة تارة ، ثم يتقلص بحيث يصعب على الجغرافي ـ وبالتالي على المؤرخ ـ الذي يريد تتبع مراحل تنقل بعض القبائل ، من مطابقة اسم القبيلة مع مجالها .

وعند الرجوع للمصادر يمكن ملامسة حدود السودان ، والتي تدخل في إطار صحراء صنهاجة ، التي تمتد ـ حسب الحسن الوزان[1]ـ من المحيط غربا ، وتمتد شرقا إلى ملاحات تغزة[2]. وتنتهي شمالا في تخوم نوميديا ، أي إقليم سوس عند أقا ودرعه . وتسير جنوبا حتى مملكتي ولاته[3] وتنبكتو . والوزان يشير إلى الصحراء القاحلة التي توجد في تنزروفت ، والقرى الواقعة شمال السودان ، فهي فعلا خاوية من أي غطاء نباتي والطعام بها قليل[4]. كما تشتهر بقلة النقاط المائية ، بل انعدامها في كثير من الأحيان .

ويعثر الباحث عند أبي حامد الأندلسي على وصف لبعض المناطق ونماذج من الشعوب السودانية مثل : التكرور[5] ، ومالي[6]، وكوكو[7] . لكن وصفه يتسم يتسم بالسطحية ، ولعل عذر أبي حامد في ذلك ، كونه لم يتجول في تلك الأصقاع ، فهو يعترف بأنه رأى سهام السودان في المغرب[8]. غير أن معلوماته في في مجموعها دقيقة ، وصحيحة ، في الوقت نفسه .

(1) الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص ص 148ـ 149.

(2) تغزة : وتكتب أيضا تغازى وهي مكان مأهول فيه عدد من مناجم الملح التي تشبه مقالع الرخام. يستخرج الملح من حفر تحيط بها أكواخ عديدة يسكنها المستخدمون لاستخراج هذا الملح ، ومنها يحمل إلى تنبكتو التي يعوزها الملح كثيرا.وليس للعاملين في ملح تغزة قوت إلا ما يحمل إليهم من تنبكتو ودرعة ، وكلاهما على مسيرة عشرين يوما من تغزة.ينظر : الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ج 2 ، ص ص 108 ـ 109.

(3) ولاته : لا يعلم بالضبط تاريخ تأسيسها ، ولكن يبدو أنها أنشأت قبل تنبكتو بسنوات وقد كانت مركزا تجاريا وحضاريا مهما حتى حدود القرن الثالث عشر الميلادي ، حيث بدأت تضعف لنمو وازدهار منافستها مدينة تنبكتو فهاجر إليها العلماء تاركين ولاته للانحسار.وهي تقع شمال غرب تنبكتو.ينظر : دريد عبد القادر نوري ، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء من القرن 4ـ10 هـ ، 10ـ 16 م ، المكتبة الوطنية بغداد ، ط 1985 ، ص 302.

(4) محمد بن عبد الله بن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، تحقيق محمد عبد الرحيم ، مؤسسة الكتب الثقافية ودار الفكر بيروت ، ط الأولى 2003 ، ج 2 ، ص 380.

(5) التكرور : وهي تلي مدينة صنغانة وتقع ما بين الغرب والقبلة ، وأهلها سودان وكانوا على المجوسية ، وحتى وليهم وارجابي بن رابيس فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام وحملهم عليها وحقق بصائرهم فيها ،

(6) مالي : تقع في شمال السودان الغربي ، وقد أسس بها شعب الماندنجو سلطنة.وهذا الشعب اعتنق الإسلام في آخر القرن الحادي عشر الميلادي ، في الحركة الدافعة التي صحبت قيام دولة المرابطين وعكوفهم على

(7) كوكو : وهي مدينة على نهر النيجر ، وسموا بذلك ، لأن الذي يفهم من نغمة طبولهم كوكو. ينظر : مجهول ، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد ، دار النشر المغربية الدار البيضاء ، ط 1985 ، ص 225.

(8) أبو حامد الأندلسي ، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ، تحقيق إسماعيل العربي ، دار الجيل بيروت ودار الأفاق الجديدة المغرب ، ط الثانية 1993 ، ص 22.

وهذه المنطقة تتوفر على نقاط مائية كثيرة في الجهة الشرقية ، والغربية ، وبالإمكان الحصول عليها دون عناء بالخصوص في وادي تلمسي الرابط بين آدرار إفوغاس[1] وجاو ، وفي منطقة تاودني[2] في الشمال . وتنتشر في هذا المجال الواسع الحشائش الخضراء والغابات ، وكذا السهول الصخرية الملساء . وشمال السودان يمتد من صحراء تنزروفت شمالا إلى المناطق المحاذية لنهر النيجر جنوبا ، وبذلك فهي أرض شاسعة كبيرة ، وهي مما يلي أروان[3]. وهذا ما جعل بعض المستكشفين[4] يحددونها بخطوط الطول شمالا بكثبان عرق بورقبة ، والستلة ، ومناجم تاودني ، ما بين 18 و20 . 15^0 . وشرقا تحدد بآبار أبلبود ، وانشاق ألول ، وغربا بالعكلة . وتتشكل منطقة شمال السودان الغربي من : جاو[5] ، وجني[6] ، وكيدال[7] ، والسوق ، وأروان[8] ، وتاودني ، وولاته ، والمبروك[9]، والحلة[10]، وتنبكتو .

ويدخل هذا المجال ضمن نطاق ما يسمى ببلاد السيبة . وهذا ما يفهم من حديث صاحب تاريخ ولاته عند تناوله لهذه المنطقة : « . . . ونحن كثير زللنا قليل أدبنا مع الملوك ، لأننا نشأنا في السيبة ، وعدم الملك ، فلا يليق بنا إلاّ من يعرف

(1) آدرار أفوغاس : هي كتلة جبلية ومرتفعات تقع في أقصى شرق السودان الغربي ، وتقطن قبائل الطوارق هذه الجبال.ينظر : عبد العزيز بن عبد الله ، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية ، معلمة المدن والقبائل ، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب ، ط 1977 ، ج 2 ، ص 19.

(2) تاودني : ملاحة تقع إلى الجنوب الشرقي من ملاحة تغازى ، وهي في الشمال الغربي من مالي.وقد بدأ استغلالها منذ القرن 8 م.ينظر : الناني ولد الحسين ، صحراء الملثمين ، دار المدار الإسلامي بيروت ، ط 2007 ، ص 433.

(3) أحمد بن الأمين الشنقيطي ، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء ومؤسسة ومؤسسة الخانجي بمصر ، ط الثانية 1958 ، ص 458 .

(4) من جملتهم : كورتيه ، وجوفر ، وبرييه ، ولاجي باري .

(5) جاو : هي المدينة التي اتخذت عاصمة بدولة الصنغاي منذ أيام الضياء الأول بعد أن كانت عاصمتها الأولى هي مدينة كوكيا وانتقلت العاصمة إلى جاو في سنة 400 هـ / 1009 م ، وبلغت جاو مجدها وأقصى شهرتها في أيام الأساكي فقد كانت قبلة التجار والقوافل التي تأتي من ناحية الشرق والقوافل القادمة من بلاد الهوسا وكلها تقصد جاو.ينظر : دريد عبد القادر نوري ، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء ، ص 293.

(6) جني : تقع إلى الغرب من تنبكتو ، وطولها يصل إلى تني وهي بلد في أرض سلطان كابر وراء جبال تنبلا ، وعرضها إلى دبوص وهي مجاورة لأرض ورن كي. ينظر : أحمد بابير الأروانى ، الجواهر الحسان في أخبار السودان ، مخطوط مكتبة الساحل بجاو ، بدون رقم ، و10 و.

(7) كيدال : مدينة شمال شرق تنبكتو ، وتقطن بها قبائل عربية عديدة أشهرها كنته ، وهي عاصمة الشمال في أزواد.

(8) أروان : وهي قرية مشهورة ، بينها وبين تنبكتو عشرة أيام ، واقعة في رمال ولا نبات فيها ، وليس بها شجر ولا زرع ولا نخل.ودورها مبنية من الطين فقط.ينظر : أحمد بن الأمين الشنقيطي ، المرجع السابق ، ص 458.

(9) المبروك : مدينة أسسها أفراد من قبيلة كنته وهي شمال جاو.ينظر : المختار بن حامد ، حياة موريتانيا الجغرافيا ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، ط 1994 ، ص 214.

(10) الحلة : وهي تعرف بحلة سيد المختار ، وهو المختار الكبير.والحلة هي كلمة مستعملة بالسودان على المكان الذي يقيم فيه الشيخ أو الأمير حيث يجير وينفق ويكسي مجموعة من الخيام.ينظر : محمد الخليفة ، الطرائف ، و7 ظ.

حالنا ويعذرنا في أول الأمر ، حتى ندخل على القانون ، ونتأدب بأدبه »[1]. ومن الذين استخدموا مصطلح البلاد السائبة الشيخ محمد بن المختار الكنتي ، الذي تحدث عن منطقته وعدّها من : « البلاد السائبة ، الخالية من سلطان ، أو أمير ، أو رئيس خيّر ، يدفع من ظلم الظلمة ، وجور الجورة ، وعدوان العادين »[2].

انتشار الإسلام بهذه المناطق :

انتشر الإسلام في شمال السودان الغربي ، وغيرها من مناطق الصحراء بعدة وسائل ، تمثلت : في حركات الفتح ، والتجارة ، ونشاط الدعاة . بالإضافة إلى الخدمات الجليلة التي قدمتها الزوايا ، لأجل إيصال المبادئ الإسلامية إلى سكان تلك البلاد .

دور الفاتحين :

إن الجهد العربي العسكري المكثف للقادة المسلمين الأوائل ، كعقبة بن نافع الفهري ، وغيره ، هو الذي أتاح لهم بلوغ صحراء ودان ، وفزان[3] ، إلى مدينة مدينة زويلة[4] (عاصمة فزان) في عام 22هـ/643م . ويشير صاحب الاستبصار ، أن عمرو بن العاص لما فتح : « برقة ، وجبل نفوسة ، بعث عقبة بن نافع حتى بلغ زويلة وافتتحها » .[5] وهكذا صار ما بين برقة[6] وزويلة للمسلمين ، ودخل الإسلام الإسلام إلى حدود السودان الأوسط .

كما ارتبط اسم عقبة بمناطق الصحراء الغربية ، فقد وصل مع جنده إلى وادي درعة[7] (الحافات الشمالية للصحراء الغربية) ، وتبعه موسى بن نصير ، في

(1) مجهول ، تاريخ ولاته ، تحقيق رحال بوبريك ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية ، مطبعة النجاح الجديدة الرباط ، ط الأولى 2002 ، ص 89.

(2) محمد الخليفة الكنتي ، الرسالة الغلاوية ، تحقيق حماه الله ولد السالم ، مطبعة كوثر الرباط ، ط الأولى 2003 ، ص 18.

(3) فزان : يسميها ابن مليح بلاد فزان ، وهي مرحلة هامة في طريق الحج.وتوصف بالحسن والجياد ، وأكثر لحومها الدجاج.ينظر : أبي عبد الله محمد بن مليح ، أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب ، تحقيق محمد الفاسي ، مطبعة محمد الخامس فاس المغرب ، ط 1970 ، ص 32.

(4) زويلة : وهي أكبر مدن فزان ، وهي تقرب من بلاد كانم ، وإليها يجلب الرقيق ، ومنها يخرج إلى بلاد إفريقية وغيرها من البلاد.ويوجد باب زويلة بالقاهرة وهو أكبر أبوابها.ينظر : ابن مليح ، المصدر السابق ، ص 35.

(5) مجهول ، كتاب الاستبصار ، ص 146

(6) برقة : وهي بالرومية الإغريقية بنطابلس وتعني خمس مدن ، وسكنتها لواتة وقد صالح عمرو بن العاص أهلها على ثلاثة عشر ألفا يؤدونها إليه جزية.ينظر : أبو عبيد البكري ، كتاب المسالك والممالك ، ج 2 ، ص ص 649 ـ 650.

(7) درعة : وتعرف درعة بواديها فإنه نهر كبير يجري من المشرق إلى المغرب ومنبعه من جبل درن ، وعليه عمارة متصلة نحو سبعة أيام وفيه أسواق كثيرة.ينظر : مجهول ، الاستبصار ، ص ص 206 ـ 207.

حملة إلى تلك الجهة[1] ، حيث قبائل صنهاجة الصحراء[2].

وتشير بعض الكتابات[3] ، أن فرقة صغيرة من جيش عقبة بن نافع ، وصلت وصلت إلى قرية ماشز[4]، ثم واستمرت في طريقها حتى مدينة كل السوق[5][6] ، السوق[5][6] ، وكان ذلك في عام 61 هـ/680م[7]. ومكثت هذه الفرقة ، مدة من الزمن الزمن بتلك النواحي . وكانت كل السوق ، تدين بالوثنية قبل الفتح ، وحمل أهلها لواء الإسلام ـ بعد ذلك ـ للمناطق المجاورة لها .

وحريّ بالقول إن الجهد العسكري المبكر للعرب المسلمين ، في القرن الأول الهجري / السابع الميلادي ، فتح الطريق أمامهم للوصول إلى مناطق ببلاد السودان في القرون التالية . ومن الحملات الأولى التي قادها المسلمون إلى تلك النواحي ، الحملة التي أرسلها الوالي الأموي عبيد الله بن الحبحاب ، بقيادة حبيب بن عبد الله الفهري (حفيد عقبة بن نافع) وذلك عام 116هـ/ 734م ، فوصلت إلى الصحراء الغربية[8] ، وأداغست[9] . ومع أن هذه الحملة كانت استطلاعية ، إلاّ أنها أنها قادت المسلمين إلى مشارف نهر السنغال[10] .

(1) DE LA CHAPELLE (F), Esquisse d 'une histoire de Sahara occidental , Hesperis, année1913T Xp24

(2) إن بعض الدارسين يتحفظون على هذه الرواية الشائعة عن الحملات التي قام بها عقبة بن نافع في المغرب.ينظر :
PROVENÇAL (L), Un nouveau récit de la conquête de l' Afrique du nord par les arabe.Dans Arabica., T1.1954.pp.19-53.

(3) آمن بن بوغتو ، جوامع التواريخ ، مخطوط مكتبة دياكوزي بجاو ، رقمه 18 ، و8 و.

(4) ماشز : تقع إلى الغرب من مدينة كل السوق ، وقد أورد محمد المفتي أن العالم شعيب بن يوسف هو الذي أسسها ، فيكون عمرها ثمانمائة وأربعين سنة ويورد صاحب المخطوط أنه من أبناء القرن السادس

(5) كل السوق : تقع إلى الشرق من مدينة جاو ، وعرفت بأنها مدينة علم وصلاح ، كان بها عدد من العلماء ، العلماء ، منهم أبو عمر الداني ، تعرضت للتخريب زمن السلطان أسكيا داوود ، قبل مجيء الحملة المغربية.ينظر : الهادي المبروك الدالي ، التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء ، ص ص 116 ـ 117

(6) كل السوق : تقع إلى الشرق من مدينة جاو ، وعرفت بأنها مدينة علم وصلاح ، كان بها عدد من العلماء ، منهم أبو عمر الداني ، تعرضت للتخريب زمن السلطان أسكيا داوود ، قبل مجيء الحملة المغربية.ينظر : الهادي المبروك الدالي ، التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما وراء الصحراء ، ص ص 116 ـ 117.

(7) مجهول ، خبر السوق ، مخطوط خزانة بيت العود بأقبلي ، دون رقم ، و4 ظ.

(8) حماه الله ولد السالم ، « الإطار الفكري للحركة المرابطية » ، أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين ، من 15 إلى 17 أفريل 1996م ، جامعة نواكشوط ، قسم التاريخ ، 1999م ، ج2 ، ص 44.

(9) أداغست : وهي مدينة عظيمة آهلة وتوجد بين صحراء لمتونة وبلاد السودان.ينظر : مجهول ، الإستبصار ، ص ص 215 ـ 216.

(10) صباح الشيخلي ، « ملاحظات حول انتشار الثقافة العربية الإسلامية في إفريقية جنوب الصحراء » ، مجلة أفاق الثقافة والتراث ، مجلة فصلية ثقافية تراثية تصدر عن قسم الدراسات والمجلة بمركز جمعة الماجد لثقافة والتراث ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، السنة العاشرة العدد 38 ، ربيع الآخرة 1423هـ ، يوليو2002م ، ص 20.

التجار ودوهم في نشر الإسلام :

وضع الإسلام أصولا أخلاقية لعملية التجارة ، كي تحافظ على الوشائج الأخوية التي تربط بين الناس . فقد أمر بالصدق ، والأمانة ، وعدم الغش في البيع . كما حثّ التجار على تخفيض الأسعار ، للتيسير على الناس ، بعد أن شجّع الجالب وحارب المحتكر . هذا بالإضافة إلى أنه أمر بحسن الكيل ، والميزان ، بعد تحريمه للتزييف ، وترويج البضاعة المغشوشة[1]. وكان على التاجر المسلم في بيعه ، وشرائه كله ، أن يذكر الله . ولذلك فالهدف العام من التجارة ، ليس تحقيق المصالح الشخصية فحسب ، وإنما إقامة المصالح الشرعية ، وبالتالي تحقيق المصالح العامة لمجموع المسلمين . وحصل بالسودان ، والصحراء ، نوع من « التوافق الغريب إلى درجة الاتحاد بين مهنة التجارة ، ومهنة الداعية إلى الله » [2].

وما يمكن ملاحظته أن التجار المسلمين وقوافلهم ، التي كانت تصل مناطق جنوب الصحراء ، كثيرا ما رافقها بعض الفقهاء ، والعلماء . وتلك القوافل بشكل عام ، كانت تحمل معها إلى جانب السلع التجارية ، أخبارا وأفكارا جديدة إلى السودان تتصل بواقع المسلمين ، وأحوالهم الاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية . بالإضافة إلى أن التجار كانوا بحاجة إلى توثيق الصلات التجارية باعتماد عملاء ، وممثلين لهم ، بين جماعات السكان[3] . ومنهم من تزوج بنساء سودانيات ، وهذا ما وطّد الأخوة الاجتماعية ، لعدم شعورهم بالطبقية ، والتعالي على الغير .

الزوايا مراكز لنشر الإسلام :

وبالنسبة للفترة موضوع البحث ، فإن الزاوية الكنتية والزاوية الفاضلية ، هي أهم المركز العلمية ، والدينية ، الأشهر بالمنطقة . حيث تزعم الأولى الشيخ المختار الكنتي ، بينما تزعم الثانية الشيخ محمد فاضل ، ونظرا لأهمية الزوايا من الناحية الدينية ، والتجارية ، فقد استمر تأسيسها على ربوع الصحراء الكبرى ، فصار طلاب العلم ، والرحلات ، ينتقلون من زاوية إلى أخرى طلبا للعلم ، إلى أن يبلغوا مكة المكرمة للحج والعلم معا[4]. وصار لفظ الزوايا علما على قبائل كثيرة ، لأن أغلب سيرتها في طلب العلم وتعليمه ، وتعمير الأرض ، وحفر الآبار ،

(1) عبد السميع المصري ، التجارة في الإسلام ، دار النهضة القاهرة ، ط 1976 ، ص ص 14ـ 25.
(2) TRIMINGHAM (J.S), the influence of Islam upon Africa, London, 1980 , p 39.
(3) دريد عبد القادر نوري ، المرجع السابق ، ص 129
(4) محمد الهيلة ، « الزاوية وأثرها في المجتمع » ، بحث منشور في المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية تونس ، تونس ، عدد 40ـ 43 ، سنة 1975 ، ص 100.

وتسيير القوافل ، وقري الضيف . وكان للزوايا[1] الدور الرئيس في نشر الإسلام ، واللغة العربية ، في السودان ، وغيرها من المناطق المحيطة .

الكشف الجغرافي وبداية إخضاع السودان :

ازداد الاهتمام بهذه المناطق منذ سنة 1203 هـ/ 1788 م[2] ، بعد أن أسست بلندن مجموعة من الباحثين ، والتجار ، رابطة النهوض بكشف الأجزاء الداخلية من إفريقيا . وكان هدف هذه الرابطة في البداية ، وكما هو واضح من تسميتها تطوير الكشوفات الجغرافية إلى دواخل إفريقيا[3]، التي لم يكن أحد في أوروبا يعرف عنها شيئا ، باستثناء ما نقله عنها بعض الرحالة ، والعلماء ، وبعض الجغرافيين المسلمين ، من أمثال : ابن بطوطة ، الذي عبر الصحراء الكبرى في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، وزار تنبكتو وأجزاء عديدة من السودان الغربي . وكذلك ما ذكره : البكري ، والإدريسي ، وابن حوقل وابن خلدون ، والحسن الوزان ، والسعدي . واستمرت هذه الرابطة ، في ممارسة عملها الخاص بجمع المعلومات . وبلغ التضليل والتدليس في جهودها إلى حد أنها جعلت من بين أهداف الاستكشاف الذي تنوي القيام به وتشجيعه ، مقاومة الرق ومحاربة التجارة في اللحم البشري في إفريقية نفسها . وهذه الفقرة من برنامجها ستضمن لها تأييد الكنيسة ومساندة الضمائر الحساسة ، التي لم تجعل في مخططها العام إلاّ الزاوية التي يروق لها أن تراها .

وفي هذه الفترة وقبل انقضاء القرن الثاني عشر الهجري / الثامن عشر الميلادي ، تمكنت تلك الرابطة بلندن ، من الاتصال برجل عربي يدعى الحاج عبد السلام شعبيني[4] من سكان تطوان بالمغرب ، والذي كان يعيش يومها في تلك المدينة ، وهذا العربي زار تنبكتو ، وأحوازها ، مع والده عام 1202 هـ/ 1787 م ، وقدّم معلومات وافية عن تلك الزيارة للرابطة ، والتي كان من بينها : « أن تنبكتو ، هي من أغنى مدن السودان الغربي »[5]. بالإضافة إلى أن السكان يتعاملون

(1) حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ط الثانية 1963 ، ص 43.

(2) FOUREAU (F), mission chez les touareg, librairie maritime et colonial Paris., 1985.p.62

(3) إسماعيل العربي ، تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، ط 1986 ، ص 289.

(4) علي محمد عبد اللطيف ، تنبكتو أسطورة التاريخ ، دار الكتب الوطنية بنغازي ، ط الأولى 2001 ، ص ص 27ـ 28.

(5) محمد عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص 28.

بالذهب ، في كافة معاملاتهم التجارية . وتمكنت تلك الرابطة أيضا من الحصول على معلومات متتابعة عن وسط الصحراء الكبرى من رجل مغربي آخر يدعى ابن علي ، كان هو أيضا في لندن في تلك الفترة 1205 ـ 1208 هـ/ 1790 ـ 1793 م ، وهي معلومات ضاعفت من اهتمام هذه الرابطة بمنطقة السودان ، وأدت إلى حثهم على مواصلة العمل بشكل أكبر بهدف اختراق الصحراء .

وفي السنة نفسها التي تشكلت فيها الجمعية الإفريقية في لندن ، ارتبطت بسائح اسمه ليديارد ، الذي سيقوم برحلة لحسابها ، ويخترق خلالها المجال الإفريقي ، غير أنه توفي قبل أن يبدأ ما سطّر له ، ضحية للحمى بمصر ، وذلك بعد أن أتم استعداداته للسفر . ويعتبر مونجو بارك الاسكتلندي ، أول من وصل إلى نهر النيجر في سنة 1211 هـ/ 1796 م ، وعمره آنذاك لا يتجاوز 25 سنة . وكان هورنمان المتطوع التالي ، الذي ارتبطت معه الجمعية الإفريقية للقيام بعمليات استكشاف في الصحراء ، وبدأ رحلته في شهر سبتمبر 1213 هـ/ 1798م[1] . ووصل إلى نهر النيجر ، بعدما استعان بالعديد من الأصدقاء ، وشبكة من العملاء .

وشكلت المناطق الممتدة من كيدال إلى تنبكتو الميدان الأساسي للفرنسيين للتوسع بعد فشل حملتهم على مصر ، لتكون أحد نقاط نفوذهم في الساحل الصحراوي[2]، وإفريقيا الغربية ، على اعتبار أن السياسة الفرنسية ، حكمتها لفترة طويلة نظرية (نقاط الارتكاز)[3] التي صاغها غيزو . وسلكوا لتحقيق أهدافهم ، مسلك التفريق بين القبائل الواقعة على حوض نهر النيجر ، والمناطق المتاخمة له ، وصولا إلى بحيرة تشاد .

ومنذ السنوات الأولى للقرن التاسع عشر بدأت تجارة القوافل في التدهور نتيجة لبدء اتضاح النوايا الاستعمارية الأوروبية في المنطقة ، وهو أمر تأكد فعلا بعد ذلك بسنوات بعدما وضع الفرنسيون أقدامهم على سواحل الجزائر ، مما أدى إلى تحول تجارة السودان باتجاه غدامس ، ومراكش[4] ، باعتبار أن الطرق المؤدية إليها أكثر أمنا . وضاعف من تزايد لجوء التجار إلى الطرق المذكورة ما فرضته فرنسا منذ الأيام الأولى لاحتلالها للجزائر من إجراءات جمركية مجحفة على طول الحدود الجنوبية للجزائر منذ سنة 1843 م ، الأمر الذي انعكس على تجارة القوافل عبر الطريق الذي كان يتجه نحو تلمسان وبقية الشمال الجزائري .

(1) إسماعيل العربي ، تاريخ الرحلة والاستكشاف ، ص ص 289ـ 292

(2) FOUREAU , Op.Cit.p.89

(3) YACONO (X), Histoire de la colonisation Française , 2 eme éd.Paris, 1988.p.354.

(4) علي محمد عبد اللطيف ، المرجع السابق ، ص 33.

وفي الفترة من سنة 1878 م إلى 1884 م ، أصيبت أوروبا بأزمة اقتصادية كبرى تركت أثرها الواضح على نشاط تجارة القوافل عبر الصحراء الكبرى ، وفي هذه الفترة أيضا ظهرت في طرابلس وبقية مدن الشمال الإفريقي أخبار بداية التحرك العسكري الفرنسي على نهر النيجر ونهر السنغال بهدف إخضاع تلك المناطق ، وعلى رأسها مدينة تنبكتو . وهو أمر أدى بالتجار إلى التحفظ عن الاستمرار في إرسال قوافلهم باتجاه السودان ، وأدى ذلك إلى تحويل تجارة المنطقة بكاملها باتجاه السواحل الغربية للقارة الإفريقية منذ تلك الفترة ليتم تصديرها بحرا إلى أوروبا .

وعلى الرغم من أن المستعمرين لم يحددوا بوضوح هدفهم الحقيقي ، إلا أن أنهم وفي نهاية القرن التاسع عشر وبعد تمكنهم من السيطرة على العديد من المواقع في منطقة غرب إفريقيا ، وتمكنهم من القضاء على أغلب جيوب المقاومة المحلية ظهرت غاياتهم من ذلك الزحف ، وأهمها الحصول على خامات تلك البلدان ، وإيجاد أسواق جديدة لتصريف منتجات أوروبا ، بالإضافة إلى فتح الطريق أمام الاستثمارات الغربية وشركاتها في تلك الأجزاء الهامة من إفريقيا .

مصادر البحث ومراجعه:

1ـ باللغة العربية:

1 ـ أبو حامد الأندلسي ، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ، تحقيق إسماعيل العربي ، دار الجيل بيروت ودار الآفاق الجديدة المغرب ، ط الثانية 1993 .

2 ـ أبو عبد الله محمد بن مليح ، أنس الساري والسارب من أقطار المغارب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب ، تحقيق محمد الفاسي ، مطبعة محمد الخامس فاس المغرب ، ط 1970 .

3 ـ أبو عبيد البكري ، كتاب المسالك والممالك ، ج 2 ، ص ص : 649 ـ 650

4 ـ أحمد بابير الأرواني ، الجواهر الحسان في أخبار السودان ، مخطوط مكتبة الساحل بجاو ، بدون رقم ، و10 و.

5 ـ أحمد بن الأمين الشنقيطي ، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ، مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء ومؤسسة الخانجي بمصر ، ط الثانية 1958 .

6 ـ إسماعيل العربي ، تاريخ الرحلة والاستكشاف في البر والبحر ، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر ، ط 1986 .

7 ـ آمن بن بوغتو ، جوامع التواريخ ، مخطوط مكتبة دياكوزي بجاو ، رقمه 18 ، و8 و.

8 ـ حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ، ط الثانية 1963 .

9 ـ الحسن الوزان ، وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي بيروت والشركة المغربية للناشرين المتحدين الرباط ، ط الثانية 1983 .

10 ـ حماه الله ولد السالم ، « الإطار الفكري للحركة المرابطية » ، أعمال الندوة الدولية حول حركة المرابطين ، من 15 إلى 17 أفريل 1996م ، جامعة نواكشوط ، قسم التاريخ ، 1999م .

11 ـ دريد عبد القادر نوري ، تاريخ الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء من القرن 4ـ10 هـ ، 10ـ 16 م ، المكتبة الوطنية بغداد ، ط 1985 .

12 ـ صباح الشيخلي ، « ملاحظات حول انتشار الثقافة العربية الإسلامية في إفريقية جنوب الصحراء » ، مجلة أفاق الثقافة والتراث ، مجلة فصلية ثقافية تراثية تصدر عن قسم الدراسات والمجلة بمركز جمعة الماجد

لثقافة والتراث ، دولة الإمارات العربية المتحدة ، السنة العاشرة العدد 38 ، ربيع الآخرة 1423هـ ، يوليو2002م .
13 ـ عبد السميع المصري ، التجارة في الإسلام ، دار النهضة القاهرة ، ط 1976 .
14 ـ عبد العزيز بن عبد الله ، الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية ، معلمة المدن والقبائل ، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغرب ، ط 1977 .
15 ـ علي محمد عبد اللطيف ، تنبكتو أسطورة التاريخ ، دار الكتب الوطنية بنغازي ، ط الأولى 2001 .
16 ـ مجهول ، تاريخ ولاته ، تحقيق رحال بوبريك ، منشورات معهد الدراسات الإفريقية ، مطبعة النجاح الجديدة الرباط ، ط الأولى 2002 .
17 ـ مجهول ، خبر السوق ، مخطوط خزانة بيت العود بأقبلي ، دون رقم ، و4 ظ
18 ـ مجهول ، كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار ، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد ، دار النشر المغربية الدار البيضاء ، ط 1985 .
19 ـ محمد الخليفة الكنتي ، الرسالة الغلاوية ، تحقيق حماه الله ولد السالم ، مطبعة كوثر الرباط ، ط الأولى 2003 .
20 ـ محمد الخليفة ، الطرائف ، و7 ظ.
21 ـ محمد الهيلة ، « الزاوية وأثرها في المجتمع » ، بحث منشور في المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية تونس ، عدد 40ـ 43 ، سنة 1975 .
22 ـ محمد بن عبد الله بن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة ، تحقيق محمد عبد الرحيم ، مؤسسة الكتب الثقافية ودار الفكر بيروت ، ط الأولى 2003 .
23 ـ المختار بن حامد ، حياة موريتانيا الجغرافيا ، دار الغرب الإسلامي بيروت ، ط 1994 .
24 ـ الناني ولد الحسين ، صحراء الملثمين ، دار المدار الإسلامي بيروت ، ط 2007 .
25 ـ الهادي المبروك الدالي ، التاريخ الحضاري لأفريقيا فيما الصحراء ، مطابع الوحدة العربية الزاوية ليبيا ، ط الأولى 2000 .

2. باللغات الأجنبية:

1 __DE LA CHAPELLE (F), Esquisse d 'une histoire de Sahara occidental , Hesperis.,année1913T X
2 _FOUREAU (F), mission chez les touareg, librairie maritime et colonial Paris., 1985.
3 _PROVENÇAL (L), Un nouveau récit de la conquête de l' Afrique du nord par les arabe.Dans Arabica., T1.1954.
4 _TRIMINGHAM (J.S), the influence of Islam upon Africa.London., 1980.
5 _YACONO (X), Histoire de la colonisation Française , 2 eme éd.Paris., 1988.